ورقة مقدمة إلى مؤتمر
"الصوفية دراسات في السودان"،
الخرطوم، ٢٨ أكتوبر ١٩٩٥
تاريخ النشر: ١٩٩٥ م

المجــذوب إلى حــضــرة المحـبــوب

والجــاذب إلى حكم ربّه المكتــــوب

نبذة عن الشيخ محمد مجذوب بن قمر الدين

(١٢١٠ - ٢٧ محرم ١٢٤٧ : ١٧٩٦/٥ - ٨ يوليو ١٨٣١)

وعن دور الصوفية في ترسيخ الأحكام الشرعية عن طريق المعارف الكشفية

البرشت هوفهاينز

المجــذوب إلى حــضــرة المحــبــوب
والجــاذب إلى حكم ربّه المكتــوب

نبذة عن الشيخ محمد مجذوب بن قمر الدين

(١٢١٠ – ٢٧ محرّم ١٢٤٧ : ١٧٩٦/٥ – ٨ يوليو ١٨٣١)

وعن دور الصوفية في ترسيخ الأحكام الشرعية عن طريق المعارف الكشفية

البرشت هوفهاينز

نودّ في هذه الورقة أن نلقي بعض الضوء على شيخ من مشائخ الطرق الصوفية في السودان، وأن نساعد، عبر التعريف ببعض خصوصياته، على تفهّم الدور الذي لعبه مشائخ الطرق في مجتمعهم، في بلد كالسودان، على عتبة العصر الحديث.

إنّ الشيخ الذي نحن بصدده هنا هو محمد مجذوب، دفين الدامَر، ابن قمر الدين بن حمد بن محمد المجذوب. لو حاولتُ أن أعرّف أهمّ مميّزاته لقلت: هو مرشد ديني أخذ من علوم الظاهر والباطن وعمل معلّمًا أحكام الدين الإسلامي ومربّيًا أتباعه عليها لكي يراعوا هذه الأحكام في حياتهم اليومية؛ وذلك ليس من خلال منهج قضائي وإنما عن طريق الدعوة إلى التخلّق بالأخلاق المحمودة. فبهذه الدعوة أسهم الشيخ مجذوب في نشر نوع خاصّ من العلم الإسلامي مبني على ما قد دوّنه العلماء والفقهاء أهل المراكز التعليمية في الحضر؛ وفي توسيع نفوذ هذا العلم خارج هذه التخوم، ليشمل أهل الريف والبنادر الصغيرة وحتّى البدو؛ وفي حثّ هؤلاء الناس على العمل بما علّمهم وعلى رقابة أعمالهم بأنفسهم حتّى ولو لم يكن هناك أيّ مراقب آخر لأنّهم هم المسؤلون عن أعمالهم في نهاية المطاف.

خلفية عن المجاذيب وعن محمد مجذوب

ينحدر محمد مجذوب من أسرة دينية في منطقة الدامَر (جنوب مُقرن النيل ونهر أتبرا) عَلا صيتها منذ منتصف القرن السابع عشر تقريبًا. أشعل زعماء هذه الأسرة نار القرآن ونار العلم هناك (أي درّسوا القرآن وفقه العبادات وبعضًا من سائر العلوم)، واشتملت نشاطاتهم أيضًا على الخدمات الطبّية (كالطبّ النبوي والرُقْية) والتوسُّط والصلح والتحكيم بين الفلاّحين والرحّل. لم تكن هذه الأسرة هي الوحيدة في الدامر التي تخصّص أبناؤها في مثل هذه الأعمال الدينية [نجد في الوثائق المحفوظة في الدامر أسماء فقهاء آخرين انقطعت ذكراهم فيما بعد]؛ إلاّ أنّها مع مرور الزمن نجحت في إقامة هيمنتها على غيرها دينيًا وسياسيًا واقتصاديًا. وأهمّ شخصية في هذا التطوّر هو الفقيه حمد «ود المجذوب» (١١٠٥–١١٩٠ : ١٦٩٣/٤–١٧٧٦/٧) الذي أصبح جدّ أسرة «المجاذيب» أي

أولاد «الفكي ود الميدوب» كما سمّاه الناس. هؤلاء المجاذيب كبر دورهم مع انحلال السلطة المركزية لدولة الفونج فأصبحت لهم سلطة محلّية بذاتهم في الدامر وما حولها. ومع أنّ أساس دورهم كان مقامهم الديني – وقد دخلت فيه، إلى جانب قيامهم بالشعائر الإسلامية، قدرتهم على الكتابة ومن ثمّ التسجيل، وكذلك سمعتهم القائمة على ممارسة الرقية – لا نستطيع أن نفصل دورهم الديني هذا عن بسط نفوذهم التحكيمي فالسياسي وتوسيع أراضيهم وشبكاتهم التجارية. ووطّد المجاذيب سيادتهم على الدامر بعرى المصاهرة في بعض الأسر الكبيرة الحاكمة والتجارية من المناطق المجاورة (بربر وشندي).

والشاهد في ذلك ميلاد محمد مجذوب في أسرة حضرية في المتّمة (حيث أمّه [عائشة بنت الأحيمر] كانت من الحضور، كبار التجّار في السودان في ذلك العصر)، وأمّ والده [فاطمة بنت الحاجّ عبد اللّه ود نقولة] كانت من أسرة تجارية في بربر. قرأ محمد مجذوب القرآن في المتّمة ثمّ التحق بمسيد أجداده بالدامر لقراءة الفقه والنحو. وبعد فترة رجع إلى المتّمة حيث أخذ يدرّس القرآن. ثمّ رحل إلى الحجاز – ولا تهمّنا هنا أسباب هذا الرحيل – وأقام مجاوراً بالمدينة المنوّرة مدّةً تقارب الثماني سنوات. بعدها انتقل إلى سواكن حيث أسّس زاويةً دينيةً وجمع حوله مجموعةً من التلامذة؛ وبعد سنتين عاد إلى موطن أجداده مارّاً بقرى بربر وأقام بخلوة جدّه الفقيه حمد بالدامر ولكنه توفّي بعد شهر فقط فلم يوفَّق في خلافة جدّه على قيادة الدامر الدينية.

كان محمد مجذوب له اليد الغزيرة في التأليف، قدر ما لم يعهده السودان من قبله. فهو من أنتج المؤلّفين السودانيين عامّةً، وكان أخصبَهم جميعًا حتّى عصره. تجاوز عدد كتاباته – ٣٦ – عدد مؤلّفات أيّ من متقدّميه ومعاصريه. إذ نجد من أنشط الكتّاب السودانيين فيما قبل مجذوب الشيخ محمد المضويّ المصري (حوالي ١٦٣٥–١٦٨٤) وله ٩ تآليف، ثم أحمد الطيّب ود البشير (١٧٤٢–١٨٢٤) وله ١٥. أمّا معاصرو مجذوب، فالوحيد منهم الذي بلغت قائمة مؤلّفاته عدداً مناسبًا له هو إسماعيل الولي (١٧٩٣–١٨٦٣) والذي له ما بين ٣٣–٤٢ مؤلّفًا كُتبت خلال فترة تساوي مدّة حياة مجذوب القصيرة. أمّا تآليف محمد عثمان الميرغني (١٧٩٣–١٨٥٢) فبلغت ال٤٦؛ ولكن الميرغني مع أهمّيته لتاريخ الإسلام في السودان لم يكن سودانيًا بنفسه. ولنذكرْ أيضًا أخصب مؤلّفي الطريقة القادرية في السودان وهو إبرهيم الكبّاشي (١٧٨٧–١٨٦٩) الذي له ١٠ كتب. كل هؤلاء هم ممثّلو نشاط تأليفي جديد وغير معهود برز في السودان منذ مطلع القرن الثالث عشر الهجري. وروّاد هذه الحركة لهم دعوة مشتركة ألا وهي إحياء الدين الإسلامي وإصلاح أحوال المسلمين وإعادة تنظيمهم الاجتماعي. فيبدو لنا أنّ هذه الدعوة الإصلاحية هي من الأسباب الرئسية للتدفّق التأليفي المدهش الذي شهده السودان في ذلك الوقت.

وفيما بعد نودّ أن نلقي بعض الضوء على ثلاث نقاط تبدو لنا محور الأساس في فهم دور المجذوب وأمثاله في التاريخ الإسلامي، ألا وهي:

١) أهمّية النصّ.

٢) العمل الإرشادي.

٣) كيفية تعامل الشيخ مع أتباعه، ودور الطريقة.

الأصول النصوصية

نستعمل مصطلح «النصّ» هنا بمعنى أوسع من استعماله في الفقه الإسلامي؛ فنعني به مجموع النصوص المعترَفة به عند فرقة معيّنة باعتبارها مرجعاً يُستند إليه في مسائل الدين أو العقيدة. [أو بعبارة أخرى: المدوّن المنصوص عليه في مراجع مكتوبة ومعترفة بها لدى علماء الدين]. ونستعمل الصفة «نصّي» معربًا لكلمة «scriptural» و«نصوصي» معربًا لـ«scripturalist». أمّا «حكم» فنعني به «norm» وهي أيضاً كلمة معناها أوسع مما في الفقه الإسلامي.

يمكننا أن ننظر إلى دور النصّ عند الشيخ مجذوب من ناحيتين: تعلّمه، وتعاليمه.

أمّا تعلّم المجذوب فلا نعرف عنه الكثير لعدم وجود المصادر الأوّلية. ولكن لا شكّ أنّه حفظ القرآن ثمّ قرأ بعضًا من علوم الفقه والنحو كما كان معهوداً في الأوساط الدينية في السودان آنذاك. وغالب التقدير أنّه واصل قراءته تلك في المدينة المنوّرة (حيث أقام سنوات عمره ما بين الخامسة أو السادسة والعشرين والثالثة والثلاثين). ولكن لا نعرف أيّة تفاصيل عن هذا.

فلذلك إذا حاولنا أن نفهم جذور وكيفية تكوين علم الشيخ المجذوب، علينا بتحليل تعاليمه كما وردت في كتاباته. فنلاحظ فيها النقطتين التالية:

* أولاً، من ناحية الأسلوب: استناد كلّ ما قاله إلى النبي (بعد ذكر الآيات القرآنية). وذلك إمّا بالعودة إلى الكتب التي جُمعت فيها الأحاديث؛ أو بطرح السؤال رأسًا على النبي في لقاء مباشر.

* وثانيًا، من ناحية الجوهر: توافق كل ما جاء المجذوب به من أحكام [ومهما كان مصدره] مع أحكام وآراء المذهب الشافعي (ولا المالكي السائد في عموم السودان، ولا الحنفي مذهب السلطان).

ومن القضايا التي تدلّ على اتّباع المجذوب للفقه الشافعي: إثباته أنّ البسملة جزء من القرآن؛ إثبات القبض بدل السدل في الصلاة؛ تحديد عدد ثياب الكفن بثلاثة؛ وإلخ ...

وعلى سبيل المثال نذكر رسالة توضّح جيّداً تينك النقطتين التين ذكرناهما. فالرسالة بعثها إلى بن عمّه [الصدّيق بن الأمين] إجابةً عن سؤال منه، فكتب: «وصل كتابكم ... وطلبتَ منّا أن نَعرِض [حالك] على [المصطفى]. ... فقد امتثلنا أمركم وعرضنا ذات يوم عليه (صلوات اللّه عليه) حالكم، فقال:» ... ويلي بعد هذا الجواب على لسان النبي، في أمر يخصّ حالة السائل النفسية [اكتئابه لعدم تمكّنه من زيارة النبي]. ثمّ يتناول مجذوب بعض الأسئلة الفقهية التى طرحها عليه بن عمّه فيجيب عنها بذكر أحاديث نبوية ممّا رواه الأئمّة الستّة في صحاحهم. جوابه يوافق تمامًا موقف الشافعية، ولكنّه لا يعلن عن هذا إطلاقًا ولا يناقش مواقف فقهاء المذاهب المختلفة. يجيء بالأجوبة على أنها أقوال من الرسول – أي أنّها أحكام لا ريب فيها. [ولنذكر في هذا السياق أيضًا أنّه لا يبالي بالأحاديث التي تروي أقوال الصحابة والتابعين].

فنرى أنّ محمد مجذوب اتّبع في كتاباته أسلوب أهل الحديث لا الفقهاء – والصراع الطويل المدى بين هتين الفرقتين معروف في التاريخ

الإسلامي. كان لأهل الحديث دور هامّ في حركة الاعتراض على التقليد المبهم وتعصّب المذاهب التي ازدادت منذ القرن الثامن عشر. والجدير بالذكر أنّ المجذوب ألّف رسالةً في هذا الموضوع سمّاها «رسالة الهدى في الاتّباع للنبي المقتدى». للأسف لم نحصُل على نسخة لهذه الرسالة، ولكنّ صاحب مناقب الشيخ يخبرنا بأنّها «في الاقتداء بالمذاهب الأربعة». نلاحظ عدم التطابق الكامل بين عنوان الرسالة ووصف مؤلّف المناقب لها، بين الاقتداء بالنبي والاقتداء بجميع المذاهب. المجذوب أعلن اتّباعه للنبي، فلم يذكر المذاهب إطلاقًا؛ أمّا غيره فأخذ مواقف المذاهب في الاعتبار. فمثلاً محمد بن علي السنوسي (١٧٨٧–١٨٥٩) اجتهد برأيه «اجتهاداً منتسباً مستقلاّ»، فما توافق من اجتهاده مع آراء مذهب معيَّن (أو بالأحرى: موقف إمام ذلك المذهب) سمّاه «اتّباعًا» [إيقاظ الوسنان، الباب الأوّل]. فكان السنوسي متّبعًا (وليس مقلّدًا) المذهب المالكي. أمّا المجذوب فأعلن كما رأينا اتّباعه المباشر للنبي، فيبدو رفضه للتقليد وكأنّه كاملٌ. ولكن، وراء ظاهرة رفض التقليد وإرجاع أيّ مسألة إلى النبي نلمح اعتماد المجذوب التامّ على المذهب الشافعي. وأساس هذا الاعتماد في غالب الظنّ هو التأثّر بما قرأه من كتب الشافعية وما سمعه من مدرّسيهم (والمعروف أنّ الشافعية أقوى المذاهب لدى علماء الحجاز). فيبدو أنّه استبطن تعاليم الشافعية بدرجة أنها ظهرت له هي الوحيدة الصحيحة، فبالتالي كانت هي التي جاء بها النبي عند طرح السؤال عليه.

ويشير هذا إلى شخصية المجذوب المخضرمة، حيث أنّه من ناحية وقف ضدّ التقليد ودعا إلى الأخذ عن النبي مباشرةً وحتّى بطريقة غير معترَفة بها عند الفقهاء هي سؤال النبي في لقاء مباشر. فهذا الأسلوب قد يفتح الباب لإيجاد وإدخال أحكام وآراء جديدة وغير معروفة إطلاقًا في حيّز المعقول، وكان هذا بالضبط سبب معارضة العلماء للاجتهاد المطلق – خوفًا من البدعة ومن فقد هيمنتهم على تحديد وتعيين ما يجب أن يعتقده الناس وما يعملون به. من هذه الناحية نلمح في المجذوب مبشّرات تطوّرات هامّة غيّرت كلّيًا فيما بعد مفهوم مبادئ العلم والاستدلال في العالم الإسلامي. ولكن المجذوب من ناحية أخرى كان محبوسًا تمامًا في مدار تعاليم المذهب الذي تربّى عليه. ولا ندري أكان المجذوب يعي هذا أم لا – لكن من الواضح أنّه استبطن أحكام الشافعية بدرجة أنّها بدت له أحكامًا نبوية.

العمل الإرشادي

محمد مجذوب، إذاً، استبطن النصّ (المرجع الأساسي لاستنباط الأحكام) – فدعا أتباعه إلى استبطانه أيضًا فإلى العمل بأحكامه. هذا هو موضوعنا الثاني.

أهمّ ما شدّد عليه المجذوب في إرشاده هو دعوة الناس إلى التوبة، ومعنى التوبة هنا تغيير سلوكهم في حياتهم اليومية. اتّهم المجذوب أكابر أهل سواكن بما يشبه الجاهلية، أي بإجراء «أحكام كانوا يتحاكمونها في جاهليتهم ويستندون لها [كذا] ويُمضونها فيما بينهم كإمضاء أحكام الشرع» كما ورد في المناقب (ص ١١٩). ولكن لم يهتمّ المجذوب إطلاقًا بنظام الحكم والقضاء؛ بل ركّز كما قلنا على سلوك الناس في حياتهم اليومية. هذا السلوك رأى فيه بعض الظواهر غير الإسلامية – أي ما ناقض الأحكام النصّية

[التي كان قد استبطنها كما أسلفنا]. فانتقد علماءَ وفقهاء سواكن بأنّهم لم يفعلوا شيئًا لإيقاف تلك المناكر، فنقرأ في المناقب (ص ١٢٠) : «وكان جانبُ الحقّ فيهم نسْيًا منسيًّا مع مشاهدة العلماء لذلك كلّه وسكوتهم عنه وجعلهم إيّاه كالطريقة المحمودة والسنّة المرغوبة. هذه عادتهم. فلمّا رأى الشيخ ... هذه المناكر نهض قائمًا على قدميه ... فأمر للّه ونهى له». ويبدو أنّ هذا الأمر وهذا النهي تجسّدا في بداية أمره في نوع من 'الحملة' إذ مرّ بأزقّة سواكن مستعجلاً «وبيده قضيب وهو في تقشّف حال فصار كلّما مرّ بجمع يقول لهم : "قولوا : 'لا إله إلاّ اللّه' !" – حتّى مرّ بأهل منكر يفعلونه وكان قد أمرهم بإزالته فقال لهم : "ألا تقولوا : 'لا إله إلاّ اللّه' ؟" ثلاثين أو عشرين مرّة أو عشرة حتّى جاوزهم» (ص ١٦٦).

وبعد هذه 'الحملة' استقرّ المجذوب على قيف سواكن حيث أنشأ زاويته. وكأنّه قال : أولائك العلماء لا صلاح منهم – فتعالوا لنضبط على ما هو أصلح منهم فنعهد على طريقة ! سأرشدكم على الطريقة وأرتّب لكم بعض الأوراد والأحزاب لتثبيت ألسنتكم وقلوبكم، فأذا بايعتموني في هذه الطريقة وصرتم من جماعتي أَحميكم يوم القيامة وأُدخلكم جميعًا الحضرة النبوية [انظر المناقب، ص ١٦٧]. وأنتم عليكم مع عهدكم لي شرط واحد فقط، وهو التوبة بمعنى العدول عن المنكر والعودة إلى الصراط المستقيم، [أي – وأعيده هنا لأهمّيته – التوبة هي تغيير السلوك. وذلك لا بصفة عامّة وغير مؤذية، إنّما ههنا، وبصفة فعلية، في الحياة اليومية.]

ويبدو أنّ المجذوب في إرشاده ركّز على بعض الأخلاق دون الأخرى، ومنها الجانب الخاصّ بالعلاقة بين الجنسين. ولذلك أسباب، فالعلاقات بين الجنسين كثيراً ما ترمز إلى العلاقات الاجتماعية عامّةً، ونجد عبر العالم وعبر تاريخ كلّ الشعوب أنّ الأخلاق الجنسية وقضايا الأسرة هي عين اهتمام كثير من الحركات الإصلاحية ذات الطابع المحافظ والتي تدعو إلى ضبط وتحصين العلاقات الأسرية لإثبات وتحصين وضع مؤيّديهم الاجتماعي وموقفهم في ظروف اجتماعية متحوّلة.

فندّد المجذوب بالـ«فواحش» التي كان يفعلها أهل سواكن وهي علاقات جنسية غير التي تسمح بها أحكام الشرع. ويبدو أنّ مثل هذه العلاقات كانت «عادة عندهم» واسعة الانتشار. فطلب المجذوب من أتباعه قطع مثل هذه العلاقات، أي طالبهم بالتخلّي عن عادتهم تلك وبمراعاة ما نصّ عليه الشرع. فالشرع المنصوص عليه هو– كما رأينا – مصدرُ وأساس الأحكام التى دعا المجذوب إلى تطبيقها .وهو نفسه (أي النصّ) محور اهتمام علماء الظاهر الذين انتقدهم المجذوب عند مجيئه إلى سواكن.

والمنهج الإرشادي للشيخ المجذوب ينحصر في ثلاث نقاط ميزته عن علماء الظاهر وهي:

١) سَعَى المجذوب إلى تطبيق أحكام الشرع بأسلوب نفسي (psychological) ولا قضائي. فعندما اكتشف أنّ أحداً فعل فاحشةً لم يحاول قطّ أن يطبّق عليه حدّ الزنا ؛ إنّما وبّخه وزجره ودعاه إلى التوبة فحسب.

٢) حَكَم المجذوب على أفعال الناس بمقياس الباطن (وهو مقياس أخلاقي) بينما اقتصر العلماء في حكمهم على مقياس الظاهر. ومقياس الباطن أحدّ من مقياس الظاهر، فبينما حُكْم الزنا له شروطه الدقيقة في الفقه، لم يبال المجذوب بمثل هذه التفاصيل الظاهرة وإنّما نهى أتباعه عن مجامعة الأجنبيّات وعن مجرّد النظر إليهنّ.

٣) اقتصرت دائرة أحكام المجذوب على أتباع طريقته، وهي هيئة اختيارية لا إلزامية، أي أنّ الفرد إذا لم يرضَ عن حكم الشيخ على سلوكه كان له الحرّية المطلقة في ترك الطريقة. ومعنى ذلك أنّ المقياس الأخلاقي الذي حكم به الشيخ تبنّاه أتباعه لأنّ مراعاته جعلتهم ذوي مرتبة أخلاقية أعلى من غيرهم أي جعلتهم طليعةً في مجتمعهم.

ويبدو أنّ كثيرين من أتباع المجذوب أصلهم من مجموعات بجاوية قد استوطنوا قيف سواكن حيث أصبحوا في تنافس اقتصادي مع مجموعات أخرى من أصل عربي أو تركي كانت سيطرت على جزء هامّ من تجارة سواكن. فيرجح أنّ من أسباب الالتحاق بالمجذوب وطريقته البحث عن مدد معنوي في السعي الى تحقيق مرتبة اجتماعية أعلى [أو بعبارة مبسّطة : أتباع الطريقة والذين يراعون أحكامها يستطيعون أن يقولوا : «نحن إسلامنا أحسن من إسلام أولائك العرب والأتراك الذين يحاولون حفظ وتبرير هيمنتهم علينا !»]

دور الطريقة

الطريقة ظاهرها هيئة اجتماعية قد تُستعمل لتنظيم مجموعة من الناس. وذلك ما فعله المجذوب بلا شكّ. أمّا أصل الطريقة فمنهاجُ سلوك، فهذا ما توضّح لنا القصّة التالية :

"كان رجل من أهل سواكن مولَعًا بالنساء؛ ثمّ تاب على يد الشيخ وبايعه في الطريقة، فعاهده الشيخ أن لا يفعل شيئًا بعد فعله الأوّل، فقبل عهده. ثمّ غلبته نفسه، فخشي إن فعل شيئًا في البلد يَطّلع عليه الشيخ، فسافر منه، فأصاب في سفره امرأةً. ثمّ رجع، فأتى ليسلّم على الشيخ، فقال له: «متى قدمتَ يا فلان ؟» قال: «الآن يا سيّدي.» فقال له: «لعلّك ما نكثت توبتك؟» فقال: «لا !» فقال: «ألا تتكلّم بالصدق؟» فقال: «هو كذلك !» فراجعه مراراً ولم يزل على إنكاره؛ فقال له: «أوقد نسيتَ فعلك بالمرأة التي طلبتْ منك التنباك في الموضع الفلاني تحت الجبل؟» فقال: «لا، لم أنسه؛ غير أنّي ما كنت أظنّ أنّك تعرف ما وقع لي في السفر، وقد حسبتُ أنّ معرفتك مقصورةً على ما يقع في البلد، فتركتُه كلّه من أجلك. فإذا كان من أمرك ما قد رأيتُ فخذ الآن طريقتك منّي وخلّني وشأني !» فضحك الشيخ من قوله" [المناقب ص ١٢٤].

في هذه القصّة عناصر كثيرة توضّح لنا كيفية تعامل الشيخ المجذوب مع أتباعه. تبدأ القصّة بالوضع قبل مجيئ الشيخ وهو انخراط أهل سواكن في فعل المنكَر. فيلي الالتقاءُ بالشيخ فالتوبة والبيعة في الطريقة والتعهّد بالعدول عن سيّئ السلوك، ثمّ تغلّب النفس [الأمّارة] فنكْث العهد وعلْم الشيخ بذلك عن طريق الكشف. فكلّ هذه العناصر مأخوذة عن تراث التصوّف بلا شكّ، ونجد غيرها عند المجذوب مثل الأوراد والأذكار، الفتح، الحال والجذب، إلخ ... ولكن مع كلّ هذا التأثّر الواضح لم يُطلِق المجذوب على نفسه لفظ «الصوفي» قطّ، ولا استعمل كلمة التصوّف وصفًا لمنهجه. ما السبب في هذا ؟

ركّز المجذوب على السلوك منهجًا أخلاقيًا لا منهج تحقيق ؛ فالتربية عنده تعني كما رأينا تغيير السلوك في الحياة اليومية أكثر ممّا هي رياضة النفس لتَرقَى في سلّم المقامات حتّى تفنى في عالم البقاء. كان المجذوب على معرفة بنظرية المقامات كما هو واضح من كتابه

«رسالة السلوك» – أمّا في واقع عمله وتعامله مع أهل طريقته (كما نستطيع أن نلمحه من خلال مراسلاته وإخبار تابعيه عنه) فلم يركّز إطلاقًا على هذه الناحية.

و«رسالة السلوك» تلك تثير اهتمامنا أيضًا لأنّها – كما اكتشفنا من خلال بحثنا – نُقلت عن رسالة أخرى هي «السير والسلوك إلى ملك الملوك» للمؤلّف الصوفي السوري قاسم الخاني الذي عاش في القرن السابع عشر [١٦١٩–١٦٩٧]. لم يعترف المجذوب بنقله عن هذا المصدر، ولكنّ مقارنة الرسالتين تثبت هذا بلا شكّ. ونلاحظ أنّ المجذوب لم ينقُل مصدره كاملاً بلا تحريف؛ بل حذف منه بعض الأجزاء وغيّر أحيانًا بعض العبارات. واللافت للنظر أنّ هذه الأجزاء المحذوفة والكلمات المغيَّرة بالذات هي التي تخصّ دقائق ما يحدُث لنفس السالك [أستعمل كلمة «النفس» هنا بمعناها الحديث «psyche»]، أي أنّ المجذوب ركّز على نواحي التأديب والتخلّق في الحياة اليومية بينما كان الخاني قد اهتمّ أكثر بنواحي الترقّي وفناء النفس عن الحياة اليومية.

[قارن في هذا السياق رسالة عثمان بن فودي (١٧٥٤–١٨١٧) «التفرقة بين التصوّف الذي للتخلّق والتصوّف الذي للتحقّق»]

فنرى أنّ المجذوب أخذ من تراث الصوفية عنصر الأخلاق قبل عنصر التحقيق. وهذا يجعلنا نفهم لماذا لم يَرو أيّ شيء عن كتب مفكّري الصوفية القدامى المشهورين. أمّا ذات التركيز على الأخلاق فلم يميّزه فقط عن صوفية التحقّق، إنّما فيه جوهر اختلافه عن علماء الظاهر حيث أنّ هؤلاء قصروا أنظارهم على ظاهر الأعمال بينما المجذوب والصوفية عامّةً أكثروا الاهتمام بباطن النيّات.

إذًا، أخذ المجذوب من علوم الظاهر الأحكام؛ وأخذ من علوم الباطن النظر الأخلاقي لها وأسلوبَ توصيلها إلى الناس. فالطريقة إذًا منهاج لاستبطان أحكام الشرع، فالشيخ وسيط بين الظاهر والباطن، وبين النصّ والعمل. ووسائطه في توصيل أحكام النصّ إلى باطن أتباعه ومن ثمّ إلى حياتهم العملية هي كلّها مأخوذة من التراث الصوفي؛ وذلك لأنّ التصوّف كان موضعَ ومخزنَ علوم الباطن، فالصوفية هم خبراء النفس في الإسلام. ومن أهمّ تلك الأساليب التي استعملها المجذوب الكشف، حيث أنّ الشيخ نجح في أن يقنع أتباعه بأنه عليم بكلّ أفعالهم وأفكارهم حتّى ولو كانوا في وحدة وعزلة مطلقة بعيدين عن أيّ إنسان رقيب عليهم. فلمّا اقتنع أتباعه بذلك أصبحوا حريصين على مراعاة أفعالهم بأنفسهم حتّى ولو لم يكن عليهم رقيب، أي أصبحت هيئة المراقبة في نفس كلّ فرد من اتباع الطريقة، في باطنه، استبطنها ولم يعد في حاجة إلى وازع خارجي.

وفي النهاية علينا أن نشير باختصار إلى ناحية أخرى غير الأخلاقية والتنظيمية أخذ فيها المجذوب من تراث التصوّف، وهي الناحية الانفعالية أو الوجدانية. فأوّلاً، كثرت له رؤية النبي، وهذا طبعًا حدث جليل ذو تأثير قويّ في نفس الرائي. ورؤية المجذوب للنبي واستجوابه له أكّدت وأثبتت ما قد استبطنه من الأحكام المنصوص عليها في الشرع كما أسلفنا. وأحيانًا كانت رؤية النبي أو مجرّد ذكرِه قد يحدث حالة جذب (وهي حالة تغيب فيها النفس عن عالم الحسّ العادي فتتّجه نحو عالم الصور أو الشعور الباطني). ومثل هذه الحالات معروفة لدى كلّ المجتمعات الإنسانية وغالبًا ما تُحدث في نفس المجذوب انفعالاً يؤدّي إلى التأكد الوجداني فوق العقلي من القيم السائدة في مجتمعه. وهذا الذي حدث لشيخنا كثيراً.

وثانيا، كانت المراسم والشعائر الدينية التي أقيمت في إطار الطريقة (الصلوات المشتركة والرواتب وقراءة المولد وإنشاد المدائح وزيارة القبور إلخ) ساهمت في نموّ شعور بالانتماء إلى جماعة أهل الصلاح والخلاص، ومن ثمّ في تقوية إخلاصهم لقيم هذه الجماعة ؛ وزاد تأهّب الجيران [أي أطباع الشيخ] النفسي بـ«ذوق»هم الشخصي لرؤية أو فتح أو مثل تلك التجارب.

فنرى أنّ الصوفية أسهموا بهذه الطريقة في ترسيخ أحكام شرعية نصّية نقلية بين أتباعهم عبر منهج أخلاقي باطني، وذلك كثيراً ما عند أهل الاطراف، أناسٍ لم تتأثّر كثيراً بالمفهوم النصوصي للدين الذي تبنّاه علماء الظاهر .

خلاصة

لقد قلنا في البداية إنّ الشيخ المجذوب أسهم في نشر نوع خاصّ من العلم الإسلامي مبني على ما قد دوّنه العلماء والفقهاء أهل المراكز التعليمية في الحضر ؛ وفي توسيع نفوذ هذا العلم خارج تخومه السالفة (في المركز)، ليشمل أهل الريف والبنادر الصغيرة وحتّى البدو (أي الأطراف) ؛ وفي حثّ هؤلاء الناس على العمل بما علّمهم وعلى رقابة أعمالهم بأنفسهم حتّى ولو لم يكن هناك أيّ رقيب خارجي لأنّهم هم المسؤلون عن أعمالهم في نهاية المطاف. وأزيد هنا خلاصةً : لا نرى في نشر مثل هذه التعاليم توسيعاً لنفوذ مفهوم علماء الحضر للإسلام فحسب (وهو مفهوم نصوصي) وإنّما أيضًا زيادة الاهتمام بالفرد المسلم أيّا كان، ومن ثمّ ازدياد أهمّية الفرد ووزنه في الحياة الدينية. فيؤشّر هذا التطوّر على انقراضَ التفرقة بين الخاصّة والعامّة التي قد كانت حجر أساس لكثير من الفكر الاجتماعي الإسلامي طوال العصور السابقة. ومع حثّ عامّة الرعيّة على رعاية أعمالهم بأنفسهم فقدَ الخاصّة – العلماء – خاصّيتهم في الرعي. استبطنت العامّة بعض أحكام العلماء، أي ما ورد في النصوص الدينية وكتب الفقه، ولكن بإيلائهم رعايةَ أعمالهم وإعمال تلك الأحكام فُتح الباب أمامهم – على المدى البعيد – لكي يتولّوا حكم أعمالهم والسيطرة على استعمال النصوص بأنفسهم – حسب مفهومهم ولصالحهم.

وفي هذا التوسّع وهذا الفتح وهذا الانقراض للتفرقة بين الخاصّة والعامّة نلمح لمع أحد أهمّ التطوّرات في العالم الإسلامي أيّامنا هذه.

فائدة في الأسماء

{تصحيح بعض الأسماء ؛ ومن خلاله بعض الأفكار الشائعة الخاطئة خول أصحابها: [الـ]مجذوب . «المجدوبية» / الشاذلية . «المجذوبية المجدّدة»}

اسم شيخنا الأصلي هو «محمد مجذوب» حسب ما هو وارد في أشعاره وتوقيع مراسلاته. أمّا لأتباعه فلم يكن «محمد مجذوب» فقط، إنّما كان «الشيخ»، بالتعريف : «الشيخ المجذوب» – فصارت تلك هي الصورة التي يستعملونها اتباعه.

ولكنّ بعض الباحثين أطلقوا عليه اسم «محمد المجذوب الصغير» الشيئ الذي لم يكن متداولاً عند المجاذيب أنفسهم. فهم لا يتكلّمون عن «محمد المجذوب الصغير» إلاّ في سياق واحد ولسبب واحد، وهو تفريق الشيخ المجذوب عن والد جدّه، محمد «المجذوب» «الكبير». وهذا هو صاحب لقب «المجذوب» الأصلي لأنّه – كما يقولون – انجذب كثيراً. فيُستعمل لفظا «الكبير» و«الصغير» لتفريق هذين المحمدين عند ذكر تسلسل الأسماء في النسب أو مثل هذا السياق.

لعلّ البعض يتساءل لماذا أركّز بهذا الشكل المعمّق على قضية الأسماء. والسبب بسيط: قضية الأسماء رمز لقضايا أخرى أوسع منها. والاستعمال المستمرّ لاسم غير مضبوط قد يشير إلى عدم الضبط وعدم الدقّة في الظواهر المختلفة لواقع المسمّى ذاته. فمثلاً نقرأ عند تريمينكهام أنّ [«المجذوب الصغير» كان خليفة الفكي حمد، أو أنّه توفّي سنة ١٨٣٢، أو ... غير هذا الكلام الخاطئ.] والأغرب من ذلك هو أنّ كلّ هذه المعلومات الخاطئة متناقلة من كتاب إلى كتاب ومن جيل إلى جيل دون التأكّد من صحّتها بالرجوع إلى أصحاب الرواية الأصلية ... !

وعدم الانتباه هذا للواقع الاجتماعي والفكري أدّى إلى التحدّث المستمرّ عن شيء سمّوه «المجذوبية» – طريقة، كما يظنّون – أسّسها محمد المجذوب الكبير أو ابنه الفكي حمد و«جدّدها» «المجذوب الصغير». لا أساس لهذا الكلام إطلاقًا ! الصحيح انّ الطريقة التي اخذها الفقيه حمد والتى أصبحت من ثمّ طريقة أسرة المجاذيب عامّةً هي الطريقة الشاذلية. هكذا سمّوها هم أنفسهم في القرن الثامن عشر وحتّى الآن. وهي – أي الطريقة – عبارة عن بعض الأعمال المعيّنة من أذكار وأحزاب وأوراد، ولعبت دلائل الخيرات الجزولية دوراً هامّاً في هذه الأحزاب. أمّا «الطريقة المجذوبية» فيرجع تاريخ هذه التسمية إلى القرن العشرين عندما جمع الشيخ مجذوب جلال الدين كتابه «الواردات الوهبية في أوراد الطريقة المجذوبية»، وذلك محاولةً له في إقامة طريقة «مجذوبية» على شكل الطرق المصرية المهيّأة والمرتّبة قانونيّا والخاضعة لقيادة مركزية. ولكن فشلت محاولته هذه لأسباب عدّة ليس لنا مجال هنا لتفصيلها ؛ فظلّت شاذليةً غير متمركزة. وقد تُستعمل كلمة «المجذوبية» لأوراد الشيخ المجذوب «الأوراد المجذوبية» فقط. فلنفس السبب لا يعرف أهل الدامر ولا سواكن ولا غيرهما طريقةً «مجذوبية مجدّدة» كما ورد في مؤلّفات بعض المؤرّخين راهنةً.